القول الرصين

في وظيفة خاتم النبيين ﷺ

الأستاذ الدكتور

الحسنين عبدالفتاح عبدالرّحمَن الشافِعيّ

أستاذ مسَاعد التفسيروعُلوم القرآن

كليَة الدّراسَات الإسلاميَة والعَربيَّة للبنين بدميَاط

الجديدة. جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، نحمده ونستعين به ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه، وعلى وآله وصحبه أجمعين.

وبعد..

فقد لاحظت أن بعضًا من العلماء والمفسرين قد تعامل مع الآيات التي تتحدث عن وظيفة المرسلين، وأفضلهم سيد الخلق صلى الله عليه وسلم وما يستلزم ذلك من صفاتهم وأخلاقهم بما يقرر نسخها، ومن تلك الآيات قوله سبحانه وتعالى: "ما على الرسول إلا البلاغ"، وقوله: "إن أنت إلا نذير"، وغيرها كثير من الآيات؛ ولذلك قصدت إلى جمع هذه الآيات، وعقدت مقارنة بين المعتدلين المدققين من المفسرين في هذه المسألة وغيرهم من المتساهلين في إطلاق دعوى النسخ على أمثال تلك الآيات المحْكمة.

هذا .. وقد قمت بعرض الآيات موضوعيًا، مع ضم النظائر؛ ليكتمل الموضوع؛ وليظهر مدى إسراف هؤلاء المفسرين حين جعلوا نحو مائة آية منسوخة بلا سند أو برهان.

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة وتمهيد ومبحثين:

فالمبحث الأول: القول بنسخ الآيات التي ظاهرها تحديد مهمَّة النبيّ ﷺ.

وينقسم إلى مطلبين: الأول: الآيات التي ظاهرها قصر مهمة النبيﷺ على التبليغ وما في معناه.

الثاني: الآيات التي ظاهرها ترك المشيئة الكاملة للمدعو في القبول وعدمه.

والمبحث الثاني: القول بنسخ آيات الصبر على أذى المخالفين

الخاتمة: وقد ذكرت فيها أهم نتائج هذا البحث.

والله أسأل أن أكون قد وفقت؛ فإن كان فهو من الله الحليم الكريم الحكيم العليم، وإن كان غير هذا فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله منه براء، كما أسأله جل جلاله أن يفيد به وينفع، والله من وراء القصد، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

تمهيد

وردت آياتٌ كثيرة تكلف النبيّ ﷺ بالاضطلاع بمهمة الدعوة والتذكير، والبلاغ، والإنذار والتبشير، ومن ذلك صدور الأمر له من أول الرسالة بإنذار قومه، ومن ذلك:

قوله ﷻ: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾، وقد قام النبي ﷺ ممتثلًا أمر ربه، وكان حريصًا على إيمان قومه؛ ولذا فقد كان يشتد على نفسه، ويحزن حزنًا شديدًا لعدم استجابتهم، وربما حمله حزنه هذا على التفكير في أمور من التفاوض وصور المعاملة التي لم يقره الحق ﷻ عليها، قال الخازن: ولما كان ﷺ شديد التعلق بطلب نجاتهم، فهو لذلك ربما اشتهى إجابتهم إلى مقترحاتهم[1]؛ ولذا جاءت الآيات بالتسلية والمواساة للرسول ﷺ عن موجدته لكفر قومه وإعراضهم وعنادهم، وعما يلقاه من الصدود، بتهوين ذلك عليه، وتعريضًا بقلة العبء بهم، كما في:

- **قوله عزوجل:** ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾[2].

وقد حكى بعض المفسرين أن هذا منسوخ بآية السيف، وممن قال بالنسخ أو حكاه عمن قال به: الهرري، كما نص ابن البارزي على نسخها بآية السيف.

---

[1] السراج المنير: ج٤صـ١٣٤.

(٢) سورة الحجر، الآية: ١٣١.

وقال ابن حزم: نسخت بآية السيف.

وقال ابن سلامة المقري: قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾[1] الآية، كان هذا قبل أن يؤمر بقتالهم ثم صار ذلك منسوخًا بآية السيف.

ومنشأ دعوى النسخ: ما تضمنته الآية أو أشارت إليه من معنى الموادعة، وهو هنا -حسب زعمهم- متمثل في: كون ظاهر معنى الآية يقصر المهمة النبوية على الدعوة، وتصرفه عن الاكتراث بكفرهم، قال في الوسيط: أي: ولا تحزن- أيها الرسول الكريم- لكفر من كفر من قومك، أو لموتهم على ذلك، أو لإعراضهم عن الحق الذي جئتهم به؛ فإن القلوب بأيدينا نصرفها كيف نشاء، أما أنت فعليك البلاغ.

ولم يرتض ابن الجوزيّ هذا فقال: قد زعم قوم أن هذا كان قبل أن يؤمر بقتالهم ثم نسخ بآية السيف.

قال: وهذا ليس بشيء؛ لأن المعنى: لا تحزن عليهم إن لم يؤمنوا، وقيل: لا تحزن بما أنعمت عليهم في الدنيا، ولا وجه للنسخ. وكذلك قال أبو الوفاء ابن عقيل: قد ذهب بعضهم إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف. وليس بصحيح[2].

---

[1] سورة الحجر، الآية: ٨٨.

[2] حدائق الروح والريحان: ج١٥صـ٨، ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه لابن البارزي: صـ٤٠، الناسخ والمنسوخ لابن حزم: صـ٤٣، الناسخ والمنسوخ للمقري: صـ١١٢، نواسخ القرآن: ج٢صـ٤٨٩، التفسير الوسيط للدكتور/ طنطاوي: ج٨صـ٧٩.

● ونظير تلك الآية قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ﴾[١]، أي: لا تأسَ عليه -أيها الرسول- ولا تحزن، فشأنه أهون من أن يحزنك، وأصغر من أن يهمك.

وقد حكى بعض المفسرين أن هذا منسوخ بآية السيف.. فقد ذكر ابن حزم أن الآية المذكورة منسوخة، إلا أنه لم يذكر لها ناسخًا[٢]، وقال بنسخها بآية السيف ابن البارزي[٣]،وحكى الكرمي فيها النسخ والإحكام[٤]، كما قال بنسخ تلك الآية بآية السيف الفيروزآبادي في بصائره[٥].

وقال المقري في الناسخ والمنسوخ: سورة لقمان نزلت بمكة، وفيها من المنسوخ آية واحدة، وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾[٦] نسخ معناها لا لفظها بآية السيف[٧].

وقد رد ابن الجوزيّ[٨] على دعوى النسخ، وقال: إنه ليس بشيء؛ لأنها إنما تضمنت التسلية له من الحزن، وذلك لا ينافي القتال.

---

[١] سورة لقمان، الآية: ٢٣.

[٢] صـ ٥٠.

[٣] صـ ٤٥.

[٤] صـ ١٦٥.

[٥] صـ ٣٧١/١.

[٦] سورة لقمان، الآية: ٢٣.

[٧] الناسخ والمنسوخ للمقري ١ : ١٤٣.

[٨] نواسخ القرآن: ص ٤٢٦ ،زاد المسير: ٦/ ٣٢٥.

وقال السخاوي: قالوا: نسخ معناها بآية السيف، وليس كما قالوا[١].

قال الإمام الطبري- عند تفسير هذه الآية-: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾ ولا تذهب نفسك عليهم حسرة، فإن مرجعهم ومصيرهم يوم القيامة إلينا، ونحن نخبرهم بأعمالهم التي عملوها في الدنيا ثم نجازيهم عليها جزاءهم[٢].

وهذا التفسير- لا شك- يتفق وإحكام الآية، ويدل على عدم التعارض بينها وبين آية السيف.

وهذا صحيح؛ فإن معناه: تهدئته ﷺ، ومواساته، وصرف نفسه عن التحسر عليهم، كما في قوله ﷻ: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾[٣] ؛ أي إنك -أيها الرسول- قد أدَّيت ما عليك من الدعوة والبلاغ.

يقول الشيخ الغزالي: يرى ضعاف الفقه أن الآية منسوخة! ترى: أنُسَرُّ لحال من كفر؟ إن العمى عن الحق شيء محزن، وعلى أية حال: فإن أولئك العميان عائدون إلى الله، ومحاسبون على ما أسلفوا. قد نقاتلهم إذا خافوا علينا لنكف بأسهم، وقد نتركهم ما تركونا، وعلى الحالين فإلى الله المرجع، وسيلقى كل إنسان جزاءه[٤].

---

[١] جمال القراء وكمال الإقراء: ص٤٤٧.

[٢] جامع البيان: ٢١/ ٨٠.

[٣] سورة فاطر، الآية: ٨.

[٤] جهاد الدعوة: ص٣٢.

- ومن نظائر تلك الآية قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾[١].

ومن القائلين بنسخ تلك الآية بآية السيف ابن البارزي[٢].

ومن عجب أن المقري قد ذهب إلى القول بنسخ نظيرتها في لقمان دون هذه، قال المقري: وقد ذهب قوم إلى أن فيها آية واحدة من المنسوخ وهي قوله تعالى: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ نسخت بآية السيف، والأولى القول الأول(يعني: القول ألا نسخ فيها)[٣].

يقول الشيخ الغزالي: إن تلك الآية تقول للرسول: لا تبتئس بهذه المواقف الكافرة، وسنجازى أصحابها بما أسروا وأعلنوا..! ما الذى ينسخ من هذه المعاني؟! ولِمَ يتصور البعض أن العقوبات تمنع الحزن على إسفاف البشر[٤]؟!

وقد سار بعض المفسرين على هذا النهج فقال بنسخ كل آية من شأنها أن يصرف ظاهرها النبي صلى الله عليه وسلم عن القتال لنشر الدعوة في رأيهم، ومن تلك الآيات:

---

[١] سورة يس، الآية: ٧٦.

[٢] ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه: ص٤٦.

[٣] الناسخ والمنسوخ : ص١٤٦

[٤] جهاد الدعوة: ص٣٤.

المبحث الأول: الآيات التي ظاهرها تحديد مهمَّة النبيّ ﷺ

المطلب الأول: قصر مهمة النبيّ ﷺ على التبليغ

وما يقتضيه من:

- الدَّعوة والبيان
- التذكرة والموعظة
- الإنذار والتبشير
- الأداء والبلاغ

الآيات المدعى عليها بالنسخ

هذا الموضع يتضمن:

(أ) ما يشير إلى كون المهمة النبوية هي الدعوة دون الإشارة لغيرها من مهام.

(ب) الآيات التي تفيد قصر المهمة النبوية على التذكرة.

(ج) الآيات التي تفيد قصر المهمة النبوية على الإنذار والتبشير.

(د) الآيات التي تفيد قصر المهمة النبوية على البلاغ.

وهذا بيانه بالتفصيل:

(أ) ما يشير إلى كون المهمة النبوية هي الدعوة دون الإشارة لغيرها من مهام:

- قوله ﷻ: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾[١].

قال القاضي ابن عطية(ت٥٤٢ هـ): قوله ﷻ: ﴿وَادْعُ إِلى رَبِّكَ﴾، وجميع الآيات التي تتضمن المهادنة والموادعة، هذا كله منسوخ بآية السَّيف[٢].

(ب) الآيات التي تفيد قصر المهمة النبوية على التذكرة:

- قوله ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾[٣].

أي: فاقتصِرْ على التذكير. قاله الآلوسيّ[٤]، ولم يكن حينئذ أمر بغير التذكير. ذكره ابن الجوزي[٥].

(ج) الآيات التي تفيد قصر المهمة النبوية على الإنذار والتبشير:

وإنذاره ﷺ إما مسلط على ما ينتظرهم من الهزيمة والقتل، ومنه ما كان في بدر وغيرها، أو على ما ينتظرهم في الآخرة من العذاب الأليم.

- ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[٦][٧].
- وقوله ﷻ: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾[٨][٩].

---

[١] سورة القصص، الآية: ٨٧.

[٢] المحرر الوجيز: ج٤صـ٣٠٤ بتصرف يسير.

[٣] سورة الغاشية، الآية: : ٢١.

[٤] روح المعاني: ج١٥صـ٣٣٠.

[٥] زاد المسير: ج٤صـ٤٣٦.

[٦] سورة ص، الآية: ٧٠.

(٧) وممن قال بالنسخ، أو حكاه عمن قال به من أهل العلم: السخاوي، وابن البازري، وغيرهما. جمال القراء: ج٢صـ٨٠٢ وما بعدها، ناسخ القرآن لابن البازري: صـ٤٦.

[٨] سورة فاطر، الآية: ٢٣.

[٩] وممن قال بالنسخ، أو حكاه عمن قال به من أهل العلم: السخاوي، وابن البازري؛ حيث قال: منسوخة لحكمها لا للفظها بآية السيف. جمال القراء: ج٢صـ٧٩٨، ناسخ القرآن لابن البازري: صـ٤٦.

- وقوله: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾[١]

قال القرطبي في تفسيره، الآية: نسختها آية القتال[٢][٣].

- وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾[٤][٥].
- وقوله: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾[٦][٧].
- وقوله: ﴿ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[٨][٩].
- وقوله: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[١٠][١١].

---

[١] سورة النمل، الآية: ٩٢.

[٢] يعني الآية النازلة بالقتال في سورة "براءة"، وتسمى آية السَّيف. الجامع لأحكام القرآن: ج١٣صـ٢٤٦، التحرير والتنوير: ج١٩صـ٢١٦.

[٣] وممن قال بالنسخ، أو حكاه عمن قال به من أهل العلم: ابن البازري وغيره؛ حيث قال: منسوخة لحكمها لا للفظها. ناسخ القرآن لابن البازري: صـ٤٤ بتصرف يسير.

[٤] سورة هود، الآية: ١٢.

[٥] قال الآلوسي: ادعي أن في سورة هود من المنسوخ أربع آيات، منها: قوله: {إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} بآية السيف. روح المعاني: ج٦صـ١٩١ بتصرف يسير.

[٦] سورة الحجر، الآية: ٨٩.

[٧] ذكر بعضُ المفسرين أن معناها منسوخ بآية السيف. وقال الهرري: نسخ معناها أو لفظها بآية السيف. وممن قال بالنسخ، أو حكاه عمن قال به: ابن البارزي، والمقري، وابن حزم، وغيرهم. زاد المسير: ج٢صـ٥٤٣، الناسخ والمنسوخ للمقري: صـ١١٢، الناسخ والمنسوخ لابن حزم: صـ٤٣، حدائق الروح والريحان: ج١٥صـ٩، ناسخ القرآن العزيز: صـ٣٨، غير أن ابن حزم يقول بنسخ معناها ولفظها، بينما يقول ابن سلامة المقري بنسخ معناها لا لفظها.

[٨] سورة العنكبوت، الآية: ٥٠.

[٩] وممن قال بالنسخ، أو حكاه عمن قال به من أهل العلم: السخاوي، وابن البازري؛ وقال: منسوخة لحكمها لا للفظها، وغيره. جمال القراء: ج٢صـ٧٨٦، ناسخ القرآن لابن البازري: صـ٤٤بتصرف يسير.

[١٠] سورة الحج، الآية: ٤٩.

[١١] وممن قال بهذا أو نقله عمن قال به من العلماء: ابن البازري. ناسخ القرآن ومنسوخه لابن البازري: صـ٤١.

- وقوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾[١][٢].

وقد حكى ابن الجوزيّ القول بالنسخ ودفَعه بقوله: زعم بعضهم أن معناها نُسخ بآية السيف؛ لأن المعنى عنده اقتصر على الإنذار، وهذا خيال فاسد؛ لأنه ليس في الآية ما يتضمن هذا، ثم هي خبر فلا وجه للنسخ[٣].

كما رد السخاويّ على دعوى النسخ بقوله: وهذا من أعجب الجهل؛ أترى أنه لما نزلت آية السيف بطل إنذاره وتذكيره بيوم القيامة؟!

- وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[٤][٥].

قال الآلوسي: قوله: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا}[٦] معناه: ليس موكولًا أو مفوضًا إليك أمرهم فتقسرهم على الإسلام وتجبرهم عليه، كقوله: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا}[٧]؛ فدارهم ومر أصحابك بمداراتهم وتحمل أذيتهم وترك المشاقة معهم، وهذا قبل نزول آية السيف.

---

[١] سورة مريم، الآية: ٣٩.

[٢] حكى السخاوي عن بعضهم القول بأنها مما نسخ بآية السيف. جمال القراء: ج١صـ٤٥، وممن قال بالنسخ، أو حكاه عمن قال به من أهل العلم: ابن البازري وغيره. ناسخ القرآن لابن البازري: صـ٤٠.

[٣] نواسخ القرآن لابن الجوزي: صـ١٦٤.

[٤] سورة فاطر، الآية: ٢٤، سورة البقرة، الآية: ١١٩.

[٥] روح المعاني: ج٨صـ٩١ بتصرف يسير.

[٦] سورة الإسراء، الآية: ٥٤.

[٧] سورة البقرة، الآية: ١١٩، فاطر، الآية: ٢٤.

(د) الآيات التي يفيد ظاهرها قصر المهمة النبوية على البلاغ:

كقوله: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[١].

ونظائرها القرآنية كثيرة، ومنها:

قوله: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[٢].

وقوله: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾[٣].

وقوله: ..﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ..﴾[٤][٥].

وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[٦][٧].

وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[٨].

وقوله: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ

---

[١] سورة يس، الآية: ١٧.

[٢] سورة النحل، الآية: ٣٥.

[٣] سورة الشورى، الآية: ٤٨.

[٤] سورة آل عمران، الآية: ٢٠.

[٥] وممن نص على نسخ تلك الآية، أو حكاه عمن قال به: الواحدي في البسيط: ج٥صـ١٣١، وابن حزم في الناسخ والمنسوخ: صـ٣٠، وابن سلامة في الناسخ والمنسوخ: صـ٦٠، وابن عطية في المحرر الوجيز: ج١صـ٤١٤، وابن جزي في التسهيل: ج١صـ١٤٨، والسخاوي في جمال القراء: ج٢صـ٦٣٩ وما بعدها، والمقري في الناسخ والمنسوخ: صـ٦٠.

[٦] سورة النحل، الآية: ٨٢.

[٧] وممن نص على نسخ تلك الآية ابنُ عطية في المحرر الوجيز: ج٣صـ٤١٣، الفيروزآبادي في البصائر: ج١صـ٢٨٠، ابن حزم في الناسخ والمنسوخ: صـ٤٠٨، وابن سلامة في ناسخه: صـ٥٩، وابن البارزي في ناسخه: صـ٣٨، كما حكى القول بنسخها ابن الجوزي ورفضه.المصفى: صـ٣٦.

[٨] سورة العنكبوت، الآية: ١٨.

الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[١][٢].

وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾[٣][٤].

وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[٥].

وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[٦].

وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[٧].

وقوله: ﴿ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ﴾[٨][٩].

---

[١] سورة الرعد، الآية: ٤٠.

[٢] وقد حكى القول بنسخ الآية الفيروزآبادي في البصائر: ج١صـ٢٦٤، وابن البارزي في ناسخه: صـ٣٧، كما حكاه السخاوي ونفاه بقوله: وليس كما قالوا. كما أحال على ما ذكره في موضع سورة آل عمران. جمال القراء: ج٢صـ٧٣٧.

[٣] سورة النور، الآية: ٥٤.

[٤] فقد قيل: إنها منسوخة بآية السيف. وممن قال بهذا أو نقله عمن قال به من العلماء: ابن البازري في ناسخ القرآن ومنسوخه: صـ٤٢.

[٥] سورة النور، الآية: ٥٤.

[٦] سورة التغابن، الآية: ١٢.

[٧] سورة المائدة، الآية: ٩٢.

[٨] سورة المائدة، الآية: ٩٩.

[٩] وممن قال بنسخها أو حكاه: ابن حزم في الناسخ والمنسوخ: صـ٣٦، بصائر ذوي التمييز: ج١صـ١٨٠، وابن البارزي في ناسخه: صـ٣١، حدائق الروح والريحان: ج٧صـ٨٩

التحليل والبيان

مضمون الآيات:

مضمون الآيات التي في هذا الباب في ظاهرها: أن المهمة النبوية قاصرة على هذه الوظيفة: الدعوة، التذكرة، التبليغ، البشارة والنذارة.

وفي تلك الآيات جميعها تسلية للمصطفى ﷺ حين أُخبر أنه ليس عليه هداهم، إنما عليه التبليغ فحسب، وحيث قد بلَّغ فقد أدَّى ما عليه.

دعوى النسخ:

قد رأى فريق من علماء التفسير وعلوم القرآن أن جميع الآيات التي تفيد قصر المهمة النبوية على الدعوة والتبليغ للإسلام بالنذارة والبشارة، والتخويف من سوء العاقبة: تعد كلها من الموادعة، وأن حكم هذه الآيات قبل أن يُؤمر النبيّ ﷺ بالسَّيف؛ يعني أنها جميعًا منسوخة بآية السيف، والمنسوخ منها عندهم هو قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ وما في معناها من الآيات المذكورة.

القائلون بالنسخ:

وممن ذهب إلى نسخ تلك الآيات، أو حكاه عمن قال به: أبوعبدالله محمد بن حزم الأنصاري(ت ٣٢٠ هـ تقريبًا)[١]، وهبة الله بن سلامة(ت ٤١٠ هـ)[٢]، والآلوسيّ[٣]، والناسخ لها عندهم: آية السَّيف[٤].

---

[١] في كتابه: الناسخ والمنسوخ في القرآن: صـ٣٠.

[٢] الناسخ والمنسوخ: صـ٦٠.

[٣] روح المعاني: ج٢صـ١٠٥.

[٤] التفسير البسيط للواحدي: ج١صـ١٣٠.

قال القرطبي: قيل: إنه مما نسخ بالجهاد.

وقال القاضي ابن عطية(ت٥٤٢ هـ): هذه الآية فيها موادعة نسختها آية السَّيف[١]، وقال في موضع آخر: ذكر بعض الناس أنها آية موادعة، وأنها مما نسخته آية السَّيف، والمعنى: إن أعرضوا فلست بقادر على خلق الإيمان في قلوبهم، وإنما عليك أن تبين وتبلغ أمر الله ونهيه[٢].

وفي تفسير حدائق الروح والريحان: وهذا قبل الأمر بالقتال، فهو منسوخ بآية السيف[٣].

وممن حكى النسخ: أبوحيان[٤]، كما ذكر بعض المفسرين الخلاف فيها أهي محكمة أم منسوخة بآية السيف، من هؤلاء ابن الجوزيّ حيث قال: هل هذه الآية محكمةٌ، أوْ لا؟ فيه قولان:

أحدهما: أنها محكمة، وأنها تدل على أن الواجب على الرسول التبليغ، وليس عليه الهُدى.

والثاني: أنها كانت قبل الأمر بالقتال، ثم نسخت بآية السّيف[٥].

قال ابن الجوزيّ: اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية، فذهبت طائفة إلى أنها محكمة، وأن المراد بها تسكين نفس النبيّ ﷺ عند امتناع من لم

---

[١] هكذا جزم بالنسخ هنا رحمه الله.

[٢] المحرر الوجيز: ج٣صـ٤١٣.

[٣] تفسير حدائق الروح والريحان: ج٤صـ٢٣١.

[٤] البحر المحيط: ج٣صـ٧٥.

[٥] زاد المسير: ج١صـ٥٨٩.

يجبه؛ لأنه كان يحرص على إيمانهم، ويتألم من تركهم الإجابة. وذهبت طائفة إلى أن المراد بها الاقتصار على التّبليغ، وهذا منسوخ بآية السيف. وذكر في آية الرعد: روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس أن قوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ نُسخ بآية السيف وفرض الجهاد، وبه قال قتادة. وقال في آية الرعد والشورى: وهذه عند المفسرين منسوخة بآية السّيف[1].

منشأ دعوى النسخ:

ومنشأ دعواهم بأنها منسوخة: هو أنَّ الآية بما تضمنته من أسلوب القصر حصرت مهمة النبيﷺ في تبليغ الرسالة والموادعة دون قتال المخالفين، ثم جاءت آية السَّيف بالإذن بقتالهم، فنسخت الاقتصارَ على التبليغ، وصارت المهمة بعدها: التبليغ والقتال في سبيل ما كُلِّفَ بتبليغه.

مناقشة القائلين بالنسخ وبيان أسباب رفض دعوى النسخ

هذه هي الآيات التي تضمنت قصر مهمة الرسول أو الرسل على البلاغ، وهي من الآيات المدعَى عليها بالنسخ، ويلاحظ أن تلك الآيات من النظائر القرآنية؛ والحكم في أحدها كالحكم في جميعها؛ ولذلك: فإننا نجد المفسرين يحيلون في تفسير النظائر على ما مرّ من النظير في موضع سابق، كما جاء في الصحيح المسبور في تفسير آية التغابن؛ حيث قال صاحبه: انظر سورة آل عمران وتفسيرها[2].. وبناء على هذا نقول:

---

[1] زاد المسير: ج١صـ٢٦٨، ج ٢ صـ٥٠١، ج ٢صـ٥٧٦، ج٤صـ٦٩.

[2] موسوعة الصحيح المسبور: ج٤صـ٤٩٦.

إن دعوى النسخ هذه لا تُسلَّم؛ لجملة من الأسباب، أهمها ما يلي:

- أن هذه الآية خبَر، والأخبار لا تقبل النسخ.

- أن القول بالنسخ يقتضي معرفة تاريخ نزول الآية؛ ليقال: إن اللاحق نسخ السابق، والتاريخ هنا غير معروف.

فمن الجليّ أن دعوى النسخ قد تسوهل فيها؛ فلم يراع فيمن نزلت، ولا على من نزلت، ولا متى نزلت.

قال ابن عطية: القول بالنسخ يحتاج أن يقترن به معرفة تاريخ نزولها، وأما على ظاهر نزول هذه الآية في وقت وفد نجران، فإنما المعنى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾ بما فيه قتال وغيره[1].

- أن بعض هذه الآيات أو نظائرها من الآيات المتأخرة في النزول، أعني أنها محكمة لم يلحقها النسخ؛ فقد وردت آية البلاغ أكثر من مرة في سورة المائدة، وهي من أواخر ما نزل.

- أن القصر هنا إضافيٌّ، يُراد به تقرير أن الرسول ليس مكَلَّفًا بإيجاد الإيمان في القلوب، وهو ما يُسمَّى بهداية القبول، فذلك من حق الله تعالى، أمَّا هداية البيان والإرشاد والتبليغ فذلك من وظيفة النبيﷺ، وهي المرادة في هذه الآية.. قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ.. ﴾

- أن الآية كما يقول د. مصطفى زيد: لم تكن تقصد إلى إعفاء النبيﷺ من

[1] المحرر الوجيز: ج١صـ٤١٤ بتصرف يسير، الجامع لأحكام القرآن: ج٤صـ٤٦.

واجب القتال في سبيل الدعوة، وإنما قصدت إلى تقرير أنه قد بَلَّغ عن الله فأدَّى ما عليه.

- ثم إن تشَريع القتال كان قبلها، ثم كانت بعدها آية السَّيف وغيرها؛ ولم يغير هذا شيئًا من حقيقة الوظيفة التي كُلِّفَ القيام بها، وإن كان قد زاد الوسائل إليها وسيلة جديدة، هي: مشروعية القتال في سبيلها؛ لتأمين الدعوة، وحماية أرواحهم من عدوان الكفار عليهم، لا لحملهم على الدخول في الإسلام بقوة السلاح[١].

- ومما يرد به على هؤلاء أن الله ﷻ قد جعل هذه هي مهمة النبيين عليهم السلام عامة كما في قوله ﷻ: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[٢]، وقوله أيضًا: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ. وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[٣].

ويقول الشيخ الغزالي: (آية سورة العنكبوت) هي بعض خطاب إبراهيم لقومه وهو يعظهم أن يتركوا أصنامهم، ويثوبوا إلى رشدهم! ترى ما علاقتها بآية السيف وقضية النسخ[٤]؟

- ومن بدهيات مقاصد تلك الآيات أنها تأتي في معنى قوله جل جلاله: "ليس عليك هداهم" أي أنك لا تملك إيصال الهداية إلى القلوب، إنما مهمتك أن تبلغ الرسالة فحسب.

---

[١] النسخ في القرآن للدكتور مصطفى زيد: ج١صـ٤٢٥، المحرر الوجيز: ج٣صـ٥٩.

[٢] سورة النحل، الآية: ٣٥.

[٣] سورة يس، الآية: ١٦، ١٧.

[٤] جهاد الدعوة للغزالي: صـ٣٠.

قال السخاوي: وإنما المعنى: فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ، وليس عليك الهداية؛ لأنه قال قبل ذلك: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾[1].

وقال ابن الجوزي: قد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذا الكلام اقتضى الاقتصار على التبليغ دون القتال ثم نسخ بآية السيف وقال بعضهم: لما كانﷺ حريصًا على إيمانهم مزعجًا نفسه في الاجتهاد في ذلك سكن جأشه بقوله: ﴿إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ﴾[2]، و ﴿إنما عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ والمعنى: لا تقدر على سوق قلوبهم إلى الصلاح؛ فعلى هذا لا نسخ.

وقال في المصفَّى: قالوا: نسختها آية السيف؛ وقد بينا في نظائرها أنه لا حاجة إلى ادعاء النسخ.

وقال في موضع آخر: روى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قوله: ﴿فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ نسخ بآية السيف وفرض الجهاد، وكذلك قال قتادة. وعلى ما سبق تحقيقه في مواضع من أنه ليس عليك أن تأتيهم بما يقترحون من الآيات؛ إنما عليك أن تبلغ، تكون محكمة، ولا يكون بينها وبين آية السيف منافاة[3].

قال محققه: وهو الصّواب -إن شاء الله تعالى- وعليه: فلا نسخ، فإنما عليه -صلّى الله عليه وسلّم- هداية الدلالة والإرشاد، وعليه –تعالى- هداية

---

[1] جمال القراء: ج٢صـ٦٤٠.

[2] سورة هود، الآية: ١٢.

[3] نواسخ القرآن: صـ١٦٣.

التوفيق والصلاح[١].

وقال ابن عاشور: ومن ضل فما أنا بقادر على اهتدائه، ولكني منذره كما أنذرت الرسلُ أقوامَها فلم يملكوا لهم هديًا حتى أهلك الله الضالين[٢].

الخلاصة والقول الصحيح

والصحيح: أن تلك الآيات محكمة، وأن دعوى النسخ فيها باطلة.

قال ابن الجوزي عند تفسيره لآية النور: ذكر بعض المفسّرين أن هذا منسوخ بآية السيف، وليس بصحيح[٣].

وقال ابن عطية: الآية إخبار للمؤمنين، فلا يتصور أن يقال: هي آية موادعة منسوخة بآيات القتال، بل هذه حال من آمن وشهد شهادة الحق. فإنه إذ قد عصم من الرسول مالَه ودمَه، فليس على الرسول في جهته أكثر من التبليغ، والله –تعالى- بعد ذلك يعلم ما ينطوي عليه صدره، وهو المجازي بحسب ذلك ثوابًا أو عقابًا.. والآية معناها: الوعيد للمؤمنين إن انحرفوا ولم يمتثلوا ما بلغ إليهم[٤].

---

[١] النسخ في القرآن: ج١صـ٤٢٩، المصفى: صـ٣٦.

[٢] التحرير والتنوير: ج٢٠صـ٥٥.

[٣] زاد المسير: ج٣صـ٣٠٣.

[٤] المحرر الوجيز: ج٢صـ٢٤٤ بتصرف يسير.

وخلاصة الأمر: أن تلك الآيات محكمة، وأن دعوى النسخ باطلة.

معنى الآية المُحكم

قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾ أي: وإن أدبروا معرضين عما تدعوهم إليه من الإسلام وإخلاص التوحيد لله رب العالمين ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ أي: فإنما أنت رسول مبلغ، فليس عليك غير إبلاغ الرسالة إلى من أرسلتك إليه من خلقي، وأداء ما كلفتك من طاعتي[1].

متابعة: الآيات التي يوهم ظاهرها تحديد مهمَّة النبيﷺ

[1] جامع البيان: ج٦ص٢٨٣.

المطلب الثاني: ترك المشيئة الكاملة لهم في القبول وعدمه

بناءً على ما سبق من قول هؤلاء العلماء بنسخ الآيات التي فهموا منها قصر المهمة النبوية على البلاغ؛ فإن من دواعي هذا أن يتركوا لمشيئتهم، فهم أحرار فيما يختارون لأنفسهم، كما في قوله عز وجل: ﴿ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ ﴾[1].. وقد وردت آيات كثيرة في هذا المعنى؛ تعطي للإنسان حق اختيار عقيدته، وما يعتنق من دين ومذهب، ثم عليه وحده تكون تبعة ومسئولية اختياره، ومن تلك الآيات ونظائرها ما يأتي:

الآيات المدعى عليها بالنسخ:

هذا الموضع يتضمن:

(أ) الآيات التي يفيد ظاهرها تخيير المدعو بين الإيمان والكفر، بحيث تكون له المشيئة، ولا يكون للداعي رسولا أو غيره سبيل عليه أو سلطان.

(ب) الآيات التي تفيد منع التسلط عليهم أو إكراههم على الإيمان.

وهذه هي الآيات ونظائرها من حيث المقصد والمعنى:

---

[1] سورة الزمر، الآية: ١٥.

(أ) الآيات التي يفيد ظاهرها تخيير المدعو بين الإيمان والكفر، بحيث تكون له المشيئة، ولا يكون للداعي -رسولا أو غيره- سبيل عليه أو سلطان:

- **قوله عزوجل:** ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1][2].
- **وقوله عزوجل:** ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾[3]
- **قوله عزوجل:** ﴿..فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ..﴾[4][5].
- **وقوله عزوجل:** ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾[6].

وممن قال بالنسخ أو حكاه عمن قال به: الشوكاني.

الرد: قال السخاوي: .. وكيف يظن من له تحصيل أن قوله عزّوجلّ: {اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ..}تفويض؟ وهذا قول مظلم كيف ما تدبرته ازداد ظلمة، ومما فيه: أنه كان لنا أن نعمل ما شئنا من غير مشيئة الله تعالى، ثم نسخ بأنّا لا نشاء شيئًا إلّا أن يشاء الله، وهذا ضرب من الهذيان[7].

---

[1] سورة الكهف، الآية: ٢٩.

[2] وممن قال بالنسخ أو حكاه عمن قال به: ابن حزم. الناسخ والمنسوخ للمقري: صـ١١٧، الناسخ والمنسوخ لابن حزم: صـ٤٤.

[3] سورة الفرقان، الآية: ٥٧.

[4] سورة الزمر، الآية: ١٥.

[5] وممن قال بالنسخ أو حكاه عمن قال به: الشوكاني وابن الجوزي والهرري وابن البازري. ناسخ القرآن لابن البازري: صـ ٤٧، حدائق الروح والريحان: ج١صـ١٢٧.

[6] سورة فصلت، الآية: ٤٠.

[7] جمال القراء: ج١صـ٤٥.

- وقوله عزوجل: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾[١][٢].

قال الهرري: .. قيل: نسخت بآية السيف.

وقال الخطيب الشربيني: نسخت بآية السيف، وكذلك: قوله تعالى: {فمن شاء ذكره}.

الرد: قال الكلبي والثعلبي: والأشبه أنه غير منسوخ[٣].

- وقوله عزوجل: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ}[٤]

قال الكلبي والثعلبي: والأشبه أنه غير منسوخ.

- وقوله عزوجل: {فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ}[٥][٦]

قال الخطيب الشربيني: نسخت بآية السيف، وكذلك قوله تعالى: {فمن شاء ذكره}[٧].

---

[١] سورة المزمل، الآية: ١٩.

[٢] وممن قال بالنسخ أو حكاه عمن قال به: الهرري والخطيب الشربيني والقرطبي وابن عادل وابن حزم.

[٣] حدائق الروح والريحان: ج٣٠صـ٣٣٩، السراج المنير: ج٤صـ٤٢١، اللباب: ج١٩صـ٤٨٠، الجامع لأحكام القرآن: ج١٩صـ٥١، الناسخ والمنسوخ لابن حزم: صـ٦٣، .

[٤] سورة المدثر، الآية: ٣٧.

[٥] سورة المدثر، الآية: ٥٥.

[٦] وممن قال بالنسخ أو حكاه عمن قال به: الخطيب الشربيني والقرطبي.

[٧] السراج المنير: ج٤صـ٤٢١، اللباب: ج١٩صـ٤٨٠، الجامع لأحكام القرآن: ج١٩صـ٥١.

- **وقوله عزوجل: ﴿..إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾[١][٢]**

قال الفيروزآبادي والهرري وغيرهما: نسخ التخيير بآية السيف.

قال ابن الجوزيّ : قد زعم بعض ناقلي التفسير أنّ قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ منسوخ بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَما تَشاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ﴾.

الرد: قال السخاوي: هذا ضرب من الجهل عظيم، فإنه عزّوجلّ لم يطلق المشيئة للعبيد، ثم حجزها عنهم ونسخها، و إنما أعلم أن العبد إذا شاء أمرًا من صلاح أو ضلال، فلا يكون ذلك إلّا أن يشاء الله، وهذا وعيد وتهديد.[٣].

- **وقوله عزوجل: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾[٤].**

وممن قال بالنسخ أو حكاه عمن قال به: القرطبي.

قال القرطبي: قيل: نسخت بآية السيف ، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾[٥][٦].

---

[١] سورة الإنسان، الآية: ٢٩.

[٢] وممن قال بالنسخ أو حكاه عمن قال به: الهرري وابن حزم وابن سلامة المقري والفيروزآبادي والكرمي.

[٣] حدائق الروح والريحان: ج٣٠صـ٤٧٣، نواسخ القرآن: صـ٥٠٣، قلائد المرجان للكرمي: صـ٢٢٠، الناسخ والمنسوخ لابن حزم: صـ٦٣، الناسخ والمنسوخ للمقري: صـ١٩٢، بصائر ذوي التمييز: ج١صـ٤٩٣، جمال القراء: ج١صـ٤٥ـ٤٦، .

[٤] سورة النبأ، الآية: ٣٩.

[٥] سورة عبس، الآية: ١١، و ١٢.

[٦] الجامع لأحكام القرآن: ج٩صـ ٥١ بتصرف يسير.

قال ابن الجوزيّ: قد زعم بعض ناقلي التفسير أنّ قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ منسوخ بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَما تَشاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ﴾.

قال: ولا أرى هذا القول صحيحًا؛ لأنه لو جاز وقوع مشيئتهم مع عدم مشيئته توجَّه النسخ. فأما إذ أخبر أن مشيئتهم لا تقع إلا بعد مشيئته، فليس للنّسخ وجه[١].

قال الكلبيُّ والثعلبي: والأشبه أنه غير منسوخ[٢].

- **قوله عزوجل: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾[٣]**

وممن قال بالنسخ أو حكاه عمن قال به: ابن حزم[٤]، وابن سلامة[٥]، وابن البارزي[٦]، والفيروزآبادي والكرمي، وحكاه ابن الجوزي ورده[٧].

قال ابن حزم: سورة عبس كلها محكم إلا قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾[٨] نسخ بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[٩].

---

[١] زاد المسير: ج ٤ صـ ٤٠٩.

[٢] اللباب لابن عادل: ج ١٩ صـ ٤٨٠، الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ صـ ٥١.

[٣] سورة عبس، الآية: ١١، و ١٢.

[٤] صـ ٦٤.

[٥] صـ ٣٢٤.

[٦] صـ ٥٧.

[٧] نواسخ القرآن: صـ ٥٠٤.

[٨] سورة عبس، الآية: ١١، و ١٢.

[٩] سورة التكوير، الآية: ٢٩.

وقال الفيروزآبادي والكرمي: إنها منسوخة بآية السيف[١].

وقال ابن الجوزيّ : قد زعم بعض ناقلي التفسير أنّ قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ﴾ منسوخ بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَما تَشاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ﴾.

الرد: قال ابن الجوزيّ: لا أرى هذا القول صحيحًا؛ لأنه لو جاز وقوع مشيئتهم مع عدم مشيئته توجَّه النسخ. فأما إذ أخبر أن مشيئتهم لا تقع إلا بعد مشيئته، فليس للنّسخ وجه[٢].

وقال الكلبيُّ والثعلبي: والأشبه أنه غير منسوخ[٣].

- **قوله عزوجل: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾[٤].**

قال ابن الجوزيّ : قد زعم بعض ناقلي التفسير أنّ قوله عزّ وجلّ: ﴿لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ منسوخ بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَما تَشاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ﴾.

الرد: قال ابن الجوزي: لا أرى هذا القول صحيحًا؛ لأنه لو جاز وقوع مشيئتهم مع عدم مشيئته توجَّه النسخ. فأما إذ أخبر أن مشيئتهم لا تقع إلا بعد مشيئته، فليس للنّسخ وجه[٥].

---

[١] البصائر: ج ١ صـ ٥٠١، قلائد المرجان، صـ ٢٢١.

[٢] زاد المسير: ج ٤ صـ ٤٠٩.

[٣] اللباب لابن عادل: ج ١٩ صـ ٤٨٠، الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ صـ ٥١، السراج المنير: ج ٤ صـ ٤٢١.

[٤] سورة التكوير، الآية: ٢٨.

[٥] زاد المسير: ج ٤ صـ ٤٠٩.

(ب) الآيات التي تفيد منع التسلط عليهم أو إكراههم على الإيمان.

ومن ذلك:

- **قوله عزوجل:** ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾[1][2].

قال أبوحيان: اختلف أهل العلم في هذه الآية: أهي منسوخة؟ أم ليست بمنسوخة؟ فقيل: هي منسوخة، وهي من آيات الموادعة التي نسختها آية السيف.

وقد حكى الثعلبي وغيره القول بالنسخ عن ابن مسعود وابن زيد ومجاهد وغيرهم.

وقال الكيا الهراسي: قال كثير من المفسرين: هو منسوخ بآية القتال.

وقال الهرري: قوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} الآية، منسوخة بقوله تعالى: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ}.

قال ابن الجوزي: اختلفوا فيه:

فقيل: هو من العام المخصص، خص منه أهل الكتاب؛ فعلى هذا هو محكم.

وقيل: نزلت قبل الأمر بالقتال، ثم نسخ بآية السيف.

---

[1] سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

[2] وممن قال بالنسخ أو حكاه عمن قال به: ابن عطية وابن الجوزي والبغوي وأبوحيان والجزائري وابن العربيّ والكيا الهراسي والهرري.

قال الثعلبي بعد أن ذكر القائلين بالنسخ: وقال الباقون: هي محكمة.

قال قتادة والضحاك: هي محكمة خاصة في أهل الكتاب الذين يبذلون الجزية.

كما ضعَّف ابن العربيّ القولَ بالنسخ[١].

- وقوله عزوجل: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[٢][٣].

قال أبوحيان: قالت فرقة: المعنى: {أفأنت تكره الناس} بالقتال حتى يدخلوا في الإيمان؟ وزعمت أن هذه الآية في صدر الإسلام، وأنها منسوخة بآية السيف.

وقال ابن الجوزي: زعم قوم منهم مقاتل نسخها بآية السيف.

الرد: قال ابن الجوزي: والصحيح: أنه ليس ها هنا نسخ، لأن الإكراه على الإيمان لا يصح، لأنه عمل القلب.

وقال أبوحيان: المعنى:أتريد أن تكره الناس بإدخال الإيمان في قلوبهم، وتضطرهم إلى ذلك؛ والله عز وجل قد شاء غيره؟ فهذا التأويل الآية عليه محكمة[٤].

---

[١] الكشف والبيان للثعلبيّ: ج٢ صـ٢٣٤، أيسر التفاسير: ج١صـ٢٤٧، البحر المحيط: ج٢صـ٦١٥، أحكام القرآن لابن العربيّ: ج١صـ٣١٠، أحكام القرآن للكيا الهراسي: ج١صـ٢٢٣، حدائق الروح والريحان: ج٤صـ١٦٤، المصفى: صـ٢١.

[٢] سورة يونس، الآية: ٩٩.

[٣] وممن قال بالنسخ أو حكاه عمن قال به: ابن الجوزي والواحدي وأبوحيان والهرري.

[٤] البحر المحيط: ج٦صـ١٠٩، حدائق الروح والريحان: ج١صـ١٢٦، المصفى: صـ٣٨،.

- **وقوله عزوجل: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾**[١][٢].

قال السخاوي: قالوا: نسخت بآية السيف.

وأورد ابن الجوزي عن ابن عباس أنه قال: المعنى: لم تبعث لتجبرهم على الإسلام، وذلك قبل أن يؤمر بقتالهم. وقالوا: نسخ هذا بآية السيف.

قال محققه: قد فسر الطبري وابن كثير الآية بما يؤيد إحكامها.

وقال مقيده: هو من النظائر، وكأنهم فهموا منها قصر مهمته الشريفة على ما ذكر! وليس كذلك[٣].

- **وقوله عزوجل: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾**[٤][٥].

قال أبوحيان: هي آية موادعة نسخت بآية السيف[٦].

---

[١] سورة ق، الآية: ٤٥.

[٢] وممن قال بالنسخ أو حكاه عمن قال به: الهرري وابن حزم وابن سلامة المقري والكرمي والبارزي والنحاس وابن الجوزي والسخاوي والشوكاني والفخر الرازي.

[٣] حدائق الروح والريحان: ج١صـ١٢٨، جمال القراء: ج٢صـ٨٣٩، نواسخ القرآن: صـ٤٧٠، الناسخ والمنسوخ لابن حزم: صـ٥٧، الناسخ والمنسوخ للمقري: صـ٢٩٠، ناسخ القرآن ومنسوخه لابن البارزي: صـ٥٠، قلائد المرجان للكرمي: صـ١٩٤، نواسخ القرآن: ج٢صـ٥٨٧.

[٤] سورة الغاشية، الآية: ٢٢.

[٥] وممن قال بالنسخ أو حكاه عمن قال به: الشوكاني وابن عطية والهرري وابن الجوزي والواحدي والفخر والبغوي وأبوحيان.

[٦] البحر المحيط: ج١٠صـ٤٦٥، حدائق الروح والريحان: ج١صـ١٢٨.

التحليل والبيان

مضمون الآيات:

مضمون الآيات التي في هذا الباب في ظاهرها أن للكفار أو المدعوين الحرية الكاملة في قبول الرسالة أو عدمه، بحيث لا يكون للدعاة الحق في إلزامهم بالانصياع والقبول بأي صورة من صور الإلزام.

دعوى النسخ:

رأى فريق من علماء التفسير وعلوم القرآن وغيرهم أن تلك الآيات منسوخة بآية السيف.

القائلون بالنسخ:

وممن ذهب إلى نسخ تلك الآيات، أو حكاه عمن قال به جماعة من العلماء بحسب الآيات المدعى نسخها، وقد تقدم في كل آية نسبة القول لمن قال بنسخها في موضعه.

منشأ دعوى النسخ:

ما تضمنته الآيات أو أشارت إليه من معنى الموادعة، وهو هنا -حسب زعمهم- متمثل في: التفويض وحرية الاختيار والمشيئة، أو تخيير المدعو بين الإيمان والكفر، بين الهداية والضلال، بين القبول والرفض، بين الاتباع وعدمه، ومنع التسلط عليهم بقتل أو إكراه على الإيمان.

إن دعوى النسخ هذه لا تُسلَّم؛ لجملة من الأسباب، أهمها ما يلي:

- أن الآيات المذكورة لا علاقة لها بترك الجهاد، ولا تتعارض معه.

- أن هذه الآيات إما أنها مرحلة في تاريخ الدعوة، تراعى كلما مرت الأمة بظروف مشابهة للحال الذي مرت به الأمة في بادئ عهدها، وإما أن يكون هذا أسلوب تهديد وتوعد؛ فإن الآية جاءت لتقوية موقف المسلمين وتثبيتهم، وليس فيها التخيير الظاهري المتوهَّم الذي أدى بهذا الفريق إلى القول بالنسخ.

قال ابن الجوزي: زعم بعضُهم أنها منسوخة، ولا أرى هذا القول صحيحًا؛ لأنه لو جاز وقوع مشيئتهم مع عدم مشيئته توجَّه النسخ. فأما إذ أخبر أن مشيئتهم لا تقع إلا بعد مشيئته، فليس للنّسخ وجه[(١)].

وقال الكلبيُّ والثعلبي: والأشبه أنه غير منسوخ[(٢)].

وقال صاحب التفسير الحديث: تضمنت الآية تنديدًا وإنذارًا وتعنيفًا لاذعًا للمشركين متناسبًا مع الموقف وباثًّا في الوقت نفسه الوثوق والاستعلاء في النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه. فليعبدوا ما شاءوا من دون الله فهم الخاسرون يوم القيامة ومن يكن خاسرًا يوم القيامة فهو الخاسر لكل شيء[(٣)].

---

(١) زاد المسير: ج ٤ صـ ٤٠٩ بتصرف يسير.

(٢) اللباب لابن عادل: ج ١٩ صـ ٤٨٠، الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ صـ ٥١.

(٣) بتصرف يسير: ٣٠٦/٤

الخلاصة والقول الصحيح

هذا أَمْرُ تَوْبِيخٍ وَتَهْدِيدٍ، كَقَوْلِهِ: "اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ" أي اعبدوا ما شئتم أن تعبدوه من دونه من الأوثان والأصنام، وستعلمون وبال عاقبتكم حينما تلقون ربكم[1].

والرأي الصحيح: أن تلك الآيات محكمة لا نسخ في شيء منها.

[1] تفسير المراغي: ١٥٤/٢٣

المبحث الثاني: ادعاء نسخ آيات الأمر بالصبر على المعاندين

لا شك أن الصبر زاد للنبيين والدعاة إلى الله في مواجهة ما يلقونه من عناد وأذى من أعداء الدعوة، وهو صفة ملازمة لكل من يتعرض للدعوة إلى الله وحمل أعباء وتكاليف الرسالة، ولكن بعض المفسرين قد رأى أن الصبر على المدعو إنما كان مرحلة من مراحل الدعوة، وأن الأخذ به أو الاتصاف والعمل بمقتضاه قد نسخ وانقضى زمنه، وبهذا يجردون الدعاة في كل زمان من خلق عظيم، وصفة ضرورية من الصفات التي لا سبيل للنجاح إلا بها، ونحن نتعرض هنا لدعوى نسخ آيات الصبر ونرد عليها بإذن الله تعالى بما يناسبها.

والصبر هو: الحبس والكف، أي حبس النفس على فعل شيء أو تركه ابتغاءَ وجه الله ﷻ.

وللصبر أنواع ثلاثة هي:

١- صبر على طاعة الله.

٢- وصبر عن معصية الله.

٣- وصبر على أقدار الله المؤلمة.

وقد جاء الأمر للرسول ﷺ، وللمسلمين بالصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعًا[١]، منها:

(١) إحياء علوم الدين: ج٤ص٦١، وعن الإمام أحمد أنها نحو تسعين موضعًا.. والناظر في «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» يجد مادة «ص

قوله: {وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}[١].

إنَّ دائرة الصبر تتَّسع لتشمل مجالاتٍ رحبةً أكثر مما يقف عنده عادة كثير من الناس إذا ذكرت كلمة«الصبر».

قال ابن الجوزيّ والآلوسي: قوله{اصبر} فيه قولان:

أحدهما: على طاعته وفرائضه.

والثاني: على الأذى والتكذيب[٢].

وقد ذكر الثعلبيّ في تفسيره من الأقوال في معنى: {اصبر} أي: على أوامر الله ونواهيه، وقيل: {فَاصْبِرْ} تحت موارد القضاء لأجل الله، وقيل: فارق الملامة والسآمة، وقيل: {فَاصْبِرْ} على البلوى؛ فإنه يمتحن أحباءَه وأصفياءَه[٣].

وقال الواحدي في الوجيز: {اصبر} لله على أوامره ونواهيه، وما يمتحنك به حتى يَكون هو الذي يُثيبك عليها

. ب . ر» بكل مشتقاتها قد وردت في القرآن مائة وبضع مرات.

(١) سورة المدثر، الآية: ٧.

(٢) زاد المسير: ج٤صـ٣٦١، روح المعاني: ج١٥صـ١٣٤.

(٣) الكشف والبيان: ج١٠صـ٧٠.

وهذا خلاف ما اختاره السمين الحلبي حيث قال: الأحسنُ أَنْ لا يُقَدَّرَ شيءٌ خاصٌّ، بل شيءٌ عامٌّ.. والثاني: أن يُضَمَّنَ «اصْبِرْ» معنى: اذْعَنْ لربِّك وسَلِّمْ له أمرَك صابرًا[1].

ويبدو أن المقصود بالأمر بالصبر هنا هو الأول، وهو الأمر بالتهيؤ والتعبئة الروحية والقلبية من أجل الاضطلاع بالرسالة، أعني الصبر على العبادة.. إن المناسب لتفسير الأمر بالصبر في أول الدعوة، وفي المرحلة السرية، وقبل مواجهة المشركين، هو تقديره بما تقدم من الصبر على العبادة وما في معناها، "هذه هي الوصية التي تتكرر عند كل تكليف بهذه الدعوة أو تثبيت. والصبر هو هذا الزاد الأصيل في هذه المعركة الشاقة. معركة الدعوة إلى الله. المعركة المزدوجة مع شهوات النفوس وأهواء القلوب ومع أعداء الدعوة الذين تقودهم شياطين الشهوات وتدفعهم شياطين الأهواء! وهي معركة طويلة عنيفة لا زاد لها إلا الصبر الذي يقصد فيه وجه الله، ويتجه به إليه احتسابا عنده وحده"[2].

ثم لما كان الجهر بالدعوة، وتطاول المشركون على الرسول ﷺ والمسلمين، جاء الأمر الإلهي بالأمر بالصبر على افتراءاتهم في نحو:

- قوله ﷻ: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾[2].

(١) الدر المصون: ج١٠ صـ٥٣٨.

(٢) سورة المزمل، الآية: ١٠.

قال مقاتل(ت١٥٠هـ): ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ من تكذيبهم إياه بالعذاب ومن الأذى[١].

قال الطبريّ(ت٣١٠هـ): المعنى: يقول تعالى ذكره لنبيه محمدﷺ: اصبر يا محمد على ما يقول المشركون من قومك لك، وعلى أذاهم. وقيل: إن ذلك نسخ؛ عن قتادة، قوله ﷻ: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾ براءة نسخت ما ههنا؛ أمر بقتالهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، لا يقبل منهم غيرها[٢].

قال القاضي ابن عطية (ت ٥٤٢ هـ): قيل: هي موادعة منسوخة بآية السَّيف، والمراد بالآية قريش[٣].

قيل: هذا في ابتداء الإسلام قبل نزول آية السَّيف[٤].

وقال الزجاج(ت٣١١هـ): هذا -واللَّه أعلم- قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال[٥].

(١) تفسير مقاتل بن سليمان: ج٤صـ٤٧٦.

(٢) جامع البيان: ج٢٣صـ٦٨٩.

(٣) المحرر الوجيز: ج٥ صـ٣٨٨.

(٤) تفسير القرآن للسمعانيّ: ج٦ صـ٨٠.

(٥) معاني القرآن وإعرابه: ج٥ صـ٢٤١.

- وقوله: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾[١].

هذه توجيهات متتابعة خلال مراحل الدعوة، وفيها الأمر بالصبر على افتراءات المشركين، من نحو قولهم: [ساحر، شاعر، مجنون] إلخ.

قال القاضي ابن عطية (ت ٥٤٢ هـ): هذه المقالات من أهل الكتاب كانت بمكة قبل الهجرة.

وقال النظار من المفسرين قوله ﷺ: {واصبر على ما يقولون} يراد به أهل الكتاب وغيرهم من الكفرة، وعم بذلك جميع الأقوال الزائغة من قريش وغيرهم، وعلى هذا التأويل يجيء قول من قال: الآية منسوخة بآية السَّيف[٢].

وقال الماتريدي(ت٣٣٣هـ): تأويله: اصبر على تكذيبهم إياك؛ ألا ترى إلى قوله في سياق الآية: (وذرني والمكذبين أولي النعمة)، فثبت أنه دعي إلى الصبر على التكذيب.

وجائز أن يكون منصرفا إلى هذا وإلى غيره؛ لأنهم كانوا لا يقتصرون على تكذيبه، بل كانوا ينسبونه إلى الكذب مرة، وإلى السحر ثانيا، وإلى الجنون ثالثا، وإلى أنه يتيم رابعا؛ فكانوا يؤذونه بأنواع الأذى؛ فجائز أن يكون قوله: (واصبر على ما يقولون) منصرفا إلى كل ذلك[٣].

(١) سورة ق، الآية: ٣٩.

(٢) المحرر الوجيز: ج٥ صـ١٦٨.

(٣) تفسير الماتريدي: ج١٠ صـ٢٧٨.

وفي البحر المحيط: قيل: هي منسوخة بآية السَّيف[١]، وفي الكشاف: قيل: الصبر مأمور به في كل حال[٢].

ومن نظائر تلك الآية:

- قوله: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ .. }[٣].
- وقوله: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ .. }[٤].

وممن قال بالنسخ، أو نقل القول بنسخ تلك الآية عمن قال به من أهل العلم: ابن البازري، وغيره[٥].

لقد واجه النبيﷺ صنوف الأذى البدني والنفسي، وقاوم ذلك كله بالصبر الذي أمره به الله في أكثر من عشرين موضعًا في القرآن كلها إبان العهد المكي؛ لأنه عهد البلاء والفتنة والضعف وتسلط الكافر، وكان مما قاله الله له: {تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين}{واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون}الآية.

(١) البحر المحيط: ج٩ صـ٥٤١.

(٢) الكشاف: ج٤ صـ٣٩٢.

(٣) سورة ص، الآية: ١٧.

(٤) سورة طه، الآية: ١٣٠.

(٥) ناسخ القرآن لابن البازري: صـ٤١، ٤٦.

ومن مواضع الأمر بالصبر في القرآن:

- قوله ﷻ: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن .. ﴾[١].

وأرى أن هذا في مرحلة الجهر بالدعوة، وبعد اشتداد أذى المشركين، ولكن:

قيل: إن معنى الأمر بالصبر منسوخ بآية السيف.

قال ابن أبي زمنين: هي منسوخة نسختها القتال. يعني آية القتال.

وقال السخاوي[٢]: في سورة القلم منسوختان، منهما قوله ﷻ: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} قال: نسخ الله أمره بالصبر بآية السيف.

وممن حكى النسخ هنا أو قال به: السخاوي، والخازن، وابن عادل في اللباب والشوكاني والفيروزآبادي، والثعلبيّ، وغيرهم[٣].

ومما يؤكد أن الأمر بالصبر خلق محكم لا ينسخ مثله، أنه:

متعلق بالطاعات، ومتعلق بالمحن والابتلاءات من الصبر على أذى الأعداء وغيره

(١) سورة القلم، الآية: ٤٨.

(٢) والسخاوي رحمه الله يحكي هنا القول بالنسخ عمن قال به؛ لا أنه يرتضي هذا؛ بل هو –رحمه الله– من أقوى المحققين في قضية النسخ.

(٣) زاد المسير: ج٤ صـ٣٢٦، الجامع لأحكام القرآن: ج١٨ صـ٢٥٣، جمال القراء: صـ٤٨٥، لباب التأويل في معاني التنزيل: ج٤ صـ٣٣١، البصائر: ج١ صـ٤٧٦، اللباب في علوم الكتاب: ج١٩ صـ٣٠٥، فتح القدير: ج٥ صـ٣٣٠، الكشف والبيان: ج١٠ صـ٦٣، تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين: ج٥ صـ٥٠.

وهو على العموم أمر النبيين والمرسلين في كل زمان وفي مواجهة كل الأقوام، كما قال ﷻ لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾[1]، وهو ليس أمرًا للأنبياء فحسب؛ وإنما هو أمر عام لكل متبع، في مواجهة الأعداء، والمحن، ويستعان به على تحمل التكاليف الشرعية، كما قال ﷻ: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[2]، فكيف يقال بنسخه! وهو خلق ثابت، وتكليف راسخ.

قال السخاوي: وليس في هذا نهي عن القتال، فيكون منسوخًا بالأمر بالقتال، وحكم الأمر بالصبر في الشدائد باقٍ[3].

ولهذه الآية من النظائر في القرآن المكيّ والمدنيّ[4].

- ومن نظائره قوله ﷻ: ﴿ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ﴾[5].

أوعز الله ﷻ إلى نبيه ﷺ ليصبر على تكذيبهم إياه وعلى الأذى، فقال ﷻ: {واصبر} يا محمد على الأذى {حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين} فحكم الله

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

(٣) جمال القراء: صـ٤٩٤.

(٤) فمن المكي: آية (٤٨) من سورة الطور، ومن المدني: آية (٢٤) من سورة الإنسان.

(٥) سورة يونس، الآية: ١٠٩.

عليها بالسيف فقتلهم ببدر، وعجل الله أرواحهم إلى النار، فصارت منسوخة، نسختها آية السيف[١].

لا نسخ في الآية ١٠٨ ولا في الآية ١٠٩؛ فقد أُمر ﷺ بتبليغ دعوته لأهل مكة بالحكمة والموعظة الحسنة، كما أمر بالصبر والتحمل، وهذه مرحلة من مراحل الدعوة ناسبها التبليغ والاحتمال، وفى مرحلة المدينة: أُمِر المسلمون بالدفاع عن أنفسهم؛ فلما وقف مشركو العرب في طريق الدعوة وكوَّنوا قوةً لصد الناس عنها أُمر المسلمون بقتال مشركي العرب خاصة: فالأمر إما تدرج في التشريع، أو تخصيص للعام، لا نسخًا[٢].

قال أبوحيان: ذهب ابن عباس وجماعة إلى أن قوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴾، وقوله: {واصبر} منسوخ بآية السيف. وذهب جماعة إلى أنه محكم، وحملوا: {وما أنا عليكم بوكيل} على أنه ليس بحفيظ على أعمالهم ليجازيَهم عليها؛ بل ذلك لله. وقوله: {واصبر} على الصبر على طاعة الله وحمل أثقال النبوة وأداء الرسالة، وعلى هذا لا تعارض بين هاتين الآيتين وبين آية السيف، وإلى هذا مال المحققون[٣].

(١) تفسير مقاتل: ج٢ صـ٢٥٢.

(٢) هامش تفسير مقاتل: ج٢ صـ٢٥٢.

(٣) البحر المحيط: ج٦ صـ١١٤.

- ومن نظائرها: قوله: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾[١].
- فأمر بالصبر لحكمه، وهو سبحانه لا يحكم إلا بالحق والعدل، وقال له: : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ فصيغة الجمع لزيادة التثبيت والتأنيس، وقال الله لموسى: ﴿ وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾ ومن كان بعين الله ومرأى منه فلن يضيع ولن يغلب، ثم أمر بالتسبيح كما أمره به في جملة آيات على أعقاب أمره بالصبر، ولعل السر فيه أن التسبيح يعطى الإنسان شحنة روحية تحلو بها مرارة الصبر.

قال بعضهم: الصبر منسوخ بآية السيف.

وممن قال بالنسخ هنا أو نقله وحكاه عمن قال به: القرطبي، والثعلبي، والسخاوي، والفيروزآبادي، وابن الجوزي وخطأه، وغيرهم[٢].

قال السخاوي: ذكر المفسرون: أن معنى الصبر نُسخ بآية السيف، ولا يصح؛ لأنه لا تضادَّ.

وقال: وإنما يصح هذا لو كان المراد الصبر عن القتال، والصبر هنا مطلق، يمكن أن يشار به إلى الصبر على أوامر الله.

---

(١) سورة الطور، الآية: ٤٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٧ صـ٧٨، الجواهر الحسان: ج٥ صـ٣١٨، جمال القراء: صـ٤٧٢، البصائر: ج١ صـ٤٤١، حدائق الروح والريحان: ج٢٨ صـ٤٣، الناسخ والمنسوخ لابن سلامة: صـ٢٩٢، ٢٩٣، ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه لابن البارزي: صـ٥١، نواسخ القرآن لابن الجوزي: صـ٤٧٣، ٤٧٤، جمال القراء: صـ٨٤٥، الناسخ والمنسوخ لابن حزم: صـ٥٨، البصائر: ج١ صـ٤٤١، المصفى من علم الناسخ والمنسوخ لابن الجوزي: صـ٥٥، زاد المسير: ج٤ صـ١٨٢.

والصحيح كما تقدم: أنه لا تعارض بين آية السيف وبين هذه الآيات ومثيلاتها؛ فلا نسخ.

- وقوله: { .. فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ}(١).
- وقوله: {وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}(٢).
- وكذلك قوله: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ .. }(٣).
- وقوله: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ}(٤).

حكى أبوحيان عن الكلبي قوله بنسخ تلك الآية بآية السيف. وممن قال بنسخها ابن البازري، وغيره(٥).

- وقوله: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ}(٦).

وممن قال بالنسخ، أو نقل القول بنسخ تلك الآية عمن قال به من أهل العلم: ابن البازري، وغيره(٧).

(١) سورة هود، الآية: ٤٩.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٥.

(٣) سورة غافر، الآية: ٥٥.

(٤) سورة غافر، الآية: ٧٧.

(٥) البحر المحيط: ج٩ صـ٢٦٦، ناسخ القرآن لابن البازري: صـ٤٧.

(٦) سورة الروم، الآية: ٦٠.

(٧) ناسخ القرآن لابن البازري: صـ٤٤.

- وقوله: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ}[١].

وهناك أمر بالصبر على ضعاف المؤمنين وفقرائهم.. كقوله: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ..}[٢].

وهناك آيات اختلف فيها:

- فقوله: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾[٣].

قال القاضي ابن عطية (ت ٥٤٢ هـ): من رأى أن هذه الآية هي فيما بين المؤمنين والمشركين، وأن الضمير للمشركين كان أفضل، قال: إن الآية نسخت بآية السَّيف، ومن رأى أن الآية إنما هي بين المؤمنين، قال هي محكمة، والصبر والغفران أفضل إجماعًا[٤].

وأرجح أنها فيما بين المؤمنين.

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٤٣.

(٤) المحرر الوجيز: ج٥صـ٤١.

- قوله: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[١].

قالوا: نسخ الصبر بآية السيف[٢].

قال السخاوي: ولا يصح ما قالوه؛ لأنه قد قال ﷻ قبلها: {وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}، فما نزلت إلّا بعد الأمر بالقتال، وكان المسلمون قد عزموا على المثلة بالمشركين لما فعل المشركون يوم أحد بحمزة-رحمه الله- وغيره من المسلمين، وقالوا: لنمثلنّ بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب[٣]، فقال لهم الله ﷻ: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾، إما عن المثلة المماثلة لما فعل بكم، وإما عن تركها رأسًا، والاقتصار على القتل دونها، ثم قال لنبيّه ﷻ: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾؛ لأنه ﷻ قال: (لأمثلنّ بسبعين منهم)، فنزل جبريل عليه السلام والنبي ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ.. ﴾ الآيات الثلاث، فصبر النبي ﷺ، وكفّر عن يمينه، ولم يمثل بأحد، فقوله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿ وَٱصۡبِرۡ.. ﴾ كما يقال لمن يعزّى في مصيبة: اصبر

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٧.

(٢) جمال القراء: ج٢ صـ٧٤٧، وقاله ابن سلامة: صـ٢١٠، وابن البارزي: صـ٣٨، وذكره مكي ضمنًا. الإيضاح: صـ١١٩، وحكى ابن حزم الخلاف فيها. الناسخ والمنسوخ: صـ٤٤.

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس: صـ٢١٣.

واحتسب، وهذا حكم باق إلى يوم القيامة، لم ينسخ، وكل من نزلت به نازلة، فهو مأمور بالصبر[١].

وذكر الإمام الطبري الأقوال التي قيلت في سبب نزول هذه الآية، وهل هي منسوخة أو محكمة؟ ثم قال: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله ﷻ أمر من عوقب من المؤمنين بعقوبة أن يعاقب من عاقبه بمثل الذي عوقب به، إن اختار عقوبته، وأعلمه أن الصبر على ترك عقوبته-على ما كان منه إليه- خير، وعزم على نبيه ﷺ أن يصبر، وذلك أن ذلك هو ظاهر التنزيل، ... فإذا كان ذلك كذلك. فيقال: إن الآية محكمة، أمر الله تعالى ذكره عباده أن لا يتجاوزوا- فيما وجب لهم قبل غيرهم من حق من مال أو نفس- الحقّ الذي جعله الله لهم إلى غيره، وأنها غير منسوخة؛ إذ كان لا دلالة على نسخها، وأن للقول بأنها محكمة وجهًا صحيحًا مفهومًا[٢].

- وكذلك قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلٗا﴾[٣].

ذكر بعضهم أن الأمر بالصبر هنا منسوخ بآية السيف، وممن قال بهذا ابن البازري[٤].

(١) جمال القراء: ج٢ صـ٧٤٨.

(٢) جامع البيان: ج١٤ صـ١٩٧.

(٣) سورة المعارج، الآية: ٥.

(٤) ناسخ القرآن لابن البازري: صـ٥٤.

ومما ورد في شأن الجهاد:

- قوله: {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}(١).
- وقوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ..﴾(٢).

هذا القدر من الآية قد تكرر في موضعين:

هذا هو الموضع الأول منهما، وهو قوله ﷻ: {إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}(٣).

والموضع الثاني يليه.

- قوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(٤).

أي: على الأذى الذي ينالكم منهم ، كترك المفارضة.

قال الواحدي: كان هذا قبل نزول آية السَّيْفِ(٥).

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.

(٥) التفسير البسيط للواحديّ: ج٦ صـ٢٣٨.

وقال القرطبي: قيل: هذا كان قبل نزول القتال، وندب الله عباده إلى الصبر والتقوى وأخبر أنه من عزم الأمور. وكذا في البخاري في سياق الحديث، إن ذلك كان قبل نزول القتال. والأظهر أنه ليس بمنسوخ، فإن الجدال بالأحسن والمداراة أبدا مندوب إليها، وكان عليه السلام مع الأمر بالقتال يوادع اليهود ويداريهم، ويصفح عن المنافقين، وهذا بيّن(١).

وقال ابن الجوزيّ: والجمهور على إحكام هذه الآية، وقد ذهب قوم إلى أن الصبر المذكور منسوخ بآية السّيف(٢).

دعوى النسخ على هذه الآية، لا يسلم؛ حيث إننا مأمورون بالصبر على أذى أعداء الله على كل حال، قبل القتال وأثناءه وبعده، بل إن الصَّبرَ أثناء القتال أحوج ما نكون إليه، فكيف ينسخه الأمر بالقتال؟

كما أن الآية ذكرت البلاء في الأموال والأنفس، قبل ذكر أذى أعداء الله للمسلمين، فنحن مأمورون بالصبر على جميع أنواع البلاء، فلا يعقل أن يُنسَخ فعل الصبر، ويبقى فعله محكمًا غير منسوخ.

كما أن الآية أمرت بالتقوى مع الصبر، فقالت: {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا}، وجُعِل الأمران فعلين للشرط، وأشارت الآية إليهما في جواب الشرط باسم الإشارة، فقالت: {فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} فلا يعقل أن ينسخ فعل الشرط، ويَبقَى الآخر محكمًا غير منسوخ(٣).

(١) الجامع لأحكام القرآن: ج٤ صـ٣٠٤.

(٢) زاد المسير: ج١ صـ٣٥٧.

(٣) النسخ في القرآن د. مصطفى زيد: ج٢ صـ٥١٦.

قال العلامة الآلوسيّ: زعم بعضهم أن هذا الأمر الذي أشارت إليه الآية كان قبل نزول آية القتال، وبنزولها نسخ ذلك، وصحح عدم النسخ، وأن الأمر بما ذكر كان من باب المداراة التي لا تنافي الأمر بالقتال[١].

- وقوله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا..}[٢].
- وقوله ﷻ: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ.. ﴾[٣].

قال القرطبيّ: روى الضحاك عن ابن عباس قال: اصبر على أذى المشركين، هكذا قضيت. ثم نسخ بآية القتال.

وقال محمد بن حزم في الناسخ والمنسوخ: سورة الإنسان كلها محكم إلا آيتين:

إحداهما: قوله ﷻ: {فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا} نسخت بآية السيف.

والآية الثانية: قوله ﷻ: {إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا} نسخ التخيير بآية السيف.

وممن قال بالنسخ هنا أو حكاه عمن قال به من أهل العلم: البقاعي، والشوكاني، والفيروزآبادي، والسخاوي وأنكره، وابن الجوزي وخطأه[٤].

---

(١) روح المعاني: ج٢ صـ٣٥٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

(٣) سورة الإنسان، الآية: ٢٤.

(٤) زاد المسير: ج٤ صـ٣٨١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج١٩ صـ١٤٩، نظم الدرر: ج٢١ صـ١٥٤، فتح القدير: ج٥ صـ٤٢٦،

قال ابن الجوزيّ: المفسّرون يقولون: هو منسوخ بآية السيف، ولا يصحّ.

وقال: زعم بعضهم أنها منسوخة بآية السيف، وقد تكلمنا عن نظائرها وبينا عدم النسخ.

وقال السخاوي: وليس في هذا نهي عن القتال، فيكون منسوخًا بالأمر بالقتال؛ وحكم الأمر بالصبر على الشدائد باق.

الترجيح

يقول الغزالي: الصبر من أبرز الأخلاق القرآنية التي عني بها الكتاب العزيز في سوره المكية والمدنية .. وهو أكثر خُلق تكرر ذكره في القرآن.. وأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر.

وترجع عناية القرآن البالغة بالصبر، إلى ما له من قيمة كبيرة دينية وخلقية، فليس هو من الفضائل الثانوية أو المكمِّلة، بل هو ضرورة لازمة للإنسان ليرقى ماديا ومعنويا، ويسعد فرديًا واجتماعيًا، فلا ينتصر دين ولا تنهض دنيا إلا بالصبر؛ فالصبر ضرورة دنيوية، كما هو ضرورة دينية؛ فلا نجاح في الدنيا، ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر.

الناسخ والمنسوخ لابن سلامة: صـ٣٢١، ناسخ القرآن ومنسوخه لابن حزم: صـ٦٣، قلائد المرجان: صـ٢٢٠، بصائر ذوي التمييز: ج١ صـ٤٩٣، نواسخ القرآن لابن الجوزي: صـ٥٠٣، جمال القراء: ج٢ صـ٨٩٢ – ٨٩٣، حدائق الروح والريحان: ج٣٠ صـ٤٧٣.

لقد أمر القرآن المؤمنين أن يستعينوا بعدَّتي الصبر والصلاة على ما يواجههم من محن في سبيل دعوتهم، فقال ﷻ في سورة البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(١)، ثم عزاهم فيمن فقدوا من أحبابهم ممن اتَّخذهم الله شهداء فقال ﷻ: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾(٢)، ثم بيَّن ما ينتظرهم من ألوان البلاء مؤكدا ذلك بلام القسم، ونون التوكيد، إذ يقول ﷻ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(٣)، وتكرر مثل هذا التأكيد على ضرورة البلاء للمؤمنين خاصة ما جاء في قوله ﷻ: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾(٤).

والمؤمنون من أتباع الأنبياء، هم أشد الناس بلاءً بعد الأنبياء الأمثل فالأمثل.. ومن ظنَّ أن طريق الإيمان مفروشة بالأزهار والرياحين، فقد جهل طبيعة الإيمان بالرسالات، وطبيعة أعداء الرسالات.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٥.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.

ولعل هذا الحسبان أو الوهم داخل نفوس بعض المؤمنين في العهد المكي بعد أن أصابهم من العذاب ما أصابهم، فنزل قوله ﷻ: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾(١).

بل في العهد المدني نجد القرآن المدني ينفي مثل هذا الحسبان الواهم في مثل قوله ﷻ في سورة البقرة: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ}(٢).

وفي أعقاب غزوة أحد، التي مسَّ المسلمين فيها من القرح ما مسهم، وفقدوا سبعين شهيدا من أبطالهم، ينزل القرآن فيقول: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(٣)".

لقد جعل القرآن الصبرَ وحده مناط الفلاح في الآخرة ودخول الجنة، واستحقاق التحية من الملائكة، وذلك في مثل قوله ﷻ في شأن الأبرار من عباده: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴾(٤)".

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤٢.

(٤) سورة الإنسان، الآية: ١٢.

وفي شأن عباد الرحمن: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾(١).

وفي شأن أولي الألباب من عباده الأخيار: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾(٢).

فالصبر هنا يحمل في طيَّاته جملة شعب الإيمان وأخلاق الإسلام.

أقول: فكيف يدعى نسخ آيات الصبر مع كل هذا.

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٥.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٤.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيد الخلق محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن ولاه.

وبعد...

فقد خلصت إلى أن جميع تلك الآيات التي تجاوزت الستين آية، والتي ادعي نسخها هي محكمة، وأن القول بنسخها خطأ بيّن، بل إن هذا القول يسيء إلى الإسلام، ويشوه صورته الناصعة لدى من يجهل حقيقته، كما يؤدي بالبعض الآخر إلى ارتكاب كثير من الأخطاء مقتدين بكلام أولئك الذين فالوا بنسخ تلك الآيات التي تدعو إلى حسن المعاملة مع الآخر.. تلك الآيات التي تحث على حسن المعاملة، والمقابلة بالطيب من القول والحسَن من الفعل، وتنهى عن النزول إلى مستنقع المقابلة بالمثل في السيئ من القول والفعل ... إلخ؛ تلك الآيات هي سِمة هذا الدين وشعاره، وأصله وأساسه؛ فلا تتغير ولا تتبدل، سواء أكنا في حالة ضعف أو في حالة قوة.

إن تلك الآيات الكريمة هي دستور يحدد موقفنا من الآخر -أو- علاقة المسلم بغير المسلم: وهي مُرَتبة على فهم واستيعاب تلك الآيات جمعًا مع آية السيف، مع ما في الموضوع من الأحاديث الثابتة، وأقوال أهل العلم، فقهاء ومفسرين ومحدثين، فهل ستظل تلك العلاقة قائمة على قانون باق ومستقر لا يتخلف أبدًا، وهو قوله: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} أم أن هذا منسوخ بآية السيف؟

إن تلك الآيات تأتي ببيان ثوابت الدعوة وأخلاق الدعاة، وأساليبهم، ومنطلقاتهم في الدعوة إلى الله: هل على الداعية أن يكون قانونه المتبع والمراعى دائمًا أبدًا هو قوله: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}؟ أم أن هذا القانون هو الآخر منسوخ بآية السيف؟

قال الغزالي: إن الزعم بأن كثيرًا من آيات الدعوة نسخت بآية السيف، هو حماقة غريبة دلت على أن الجماهير المسلمة فى أيام التخلف العقلى أو العلمى فى حضارتنا جهلوا القرآن، ونسوا بهذا الجهل كيف يدعون إلى الله؟ وكيف يحركون الدعوة؟ وكيف يضعون نماذج حسنة للعرض الحسن؟ .. ولعل هذا من أسباب فشل الدعوة الإسلامية، ووقوف هذه الدعوة فى أيام كثيرة عن أداء رسالتها، ظُنَّ أن السيف هو الذى يؤدى واجب التبليغ! وهذا باطل باتفاق العقلاء[1].

وينبغي أن يعرف أن للنسخ مفهومين:

-مفهوم لدى السلف المتقدمين.

-مفهوم آخر لدى الخلف المتأخرين.

لكن هناك قدرا مشتركا بين المفهومين؛ وهو أن (النسخ): يشبه التخصيص في أنه يفيد تخصيص الحكم ببعض الأزمان؛ كما أن (التخصيص): يشبه النسخ في رفع الحكم عن بعض الأفراد؛ لذا سمى بعض العلماء الاستثناء والتخصيص نسخًا، فأدخلوا صورًا منهما في باب النسخ.

لقد كان مصطلح النسخ واسعًا عند السلف من الصحابة والتابعين وأهل العصر الأول للتدوين؛ فيدخل تحته أمور عدة، منها: تخصيص اللفظ العام،

[1] كيف نتعامل مع القرآن: صـ٨٨ بتصرف يسير.

والاستثناء، وتقييد المطلق، وتبيين المجمل، ونحو ذلك؛ بينما كان هذا المصطلح لدى المتأخرين -ممن جاء بعد ذلك من الفقهاء والأصوليين زمن تحديد المصطلحات- مقصورا على إزالة وإبطال الحكم المتقدم الثابت بالدليل بحكم متراخ عنه ثابت بدليل آخر.

كما خلصت إلى أنه لا ينبغي الاغترار ببعض الروايات التي تقول بالنسخ عن بعض السلف؛ إذ كان النسخ عند هؤلاء المتقدمين أعم من النسخ المصطلح عليه عند المتأخرين- من الأصوليين والفقهاء والمحدثين-فكان معناه عندهم (عموم البيان)، فيشمل: {تخصيص اللفظ العام، وتقييد المطلق، وتبيين المجمل، والاستثناء، ونحو ذلك، ويشمل كذلك النسخ بالمعنى الاصطلاحي عند المتأخرين}، وقد قرر هذا جمع من المحققين منهم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم والشاطبي، بينما كان هذا المصطلح لدى المتأخرين ممن جاء بعد ذلك من الفقهاء والأصوليين زمن تحديد المصطلحات مقصورا على إزالة وإبطال الحكم المتقدم الثابت بالدليل بحكم متراخ عنه ثابت بدليل آخر.

قال ابن القيم: مراد عامة السلف بالناسخ والمنسوخ رفع الحكم بجملته تارة وهو اصطلاح المتأخرين، ورفع دلالة العام والمطلق والظاهر وغيرها تارة، إما بتخصيص أو تقييد أو حمل مطلق على مقيد وتفسيره وتبيينه حتى إنهم يسمون الاستثناء والشرط والصفة نسخا لتضمن ذلك رفع دلالة الظاهر وبيان المراد، فالنسخ عندهم وفي لسانهم هو بيان المراد بغير ذلك اللفظ، بل بأمر خارج عنه، ومن تأمل كلامهم رأى من ذلك فيه ما لا يحصى، وزال عنه به إشكالات أوجبها حمل كلامهم على الاصطلاح الحادث المتأخر[1].

[1] إعلام الموقعين عن رب العالمين؛ لابن قيم الجوزية: ج١ صـ٢٩.

والمقصود أن السلف إنما اختلفوا في التسمية؛ لكنهم متفقون على جواز النسخ ووقوعه؛ لكن النسخ في كلامهم قسمان:

١) قسم يزول الحكم فيه بالكلية (وهو النسخ الاصطلاحيّ المعروف).
٢) وقسم يرفع بعض الأفراد.

وهذا القسم تحته أنواع، ومنها:

أ - تخصيص العام؛ لأن تخصيص العام هو إخراج بعض أفراد العام؛ فهو نسخ جزئي؛ أي إزالة جزئية لا كلية.

ب - تقييد المطلق؛ وهو إخراج الأفراد التي تدخل في المعنى الكلي الشائع في جنسه، فمثلا بدل أن تكون رقبة مطلقة تكون رقبة مؤمنة فأزال التقييد الرقبة الكافرة.

ج - بيان المجمل؛ وذلك بإزالة المعاني المرجوحة من اللفظ؛ فالمجمل هو: ما دل على معنيين فأكثر لا مزية لأحدها على الآخر، فيأتي المبين ليزيل المرجوح ويبقي المعنى الراجح، فهو إزالة، لكنها إزالة جزئية لا كلية.

ومن هنا فلا غرابة أن يجد المطلع على مرويات الصحابة والتابعين المبثوثة في كتب التفسير بالمأثور، أقوالا كثيرة صرحوا فيها بالنسخ بين أجزاء الآية الواحدة، أو حكموا بنسخ نصوص الأخبار التي لا مجال للنسخ فيها[1]، ومن أمثلة هذا ما روي:

[1] الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه: صـ٧٤، النسخ في القرآن الكريم: صـ١١٠، نظرية النسخ في الشرائع السماوية: صـ١٢ بتصرف.

عن ابن عباس في قوله جل ذكره: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ}[١] قال: هو منسوخ بقوله: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا..}[٢]. فسمى ابن عباس الاستثناء نسخًا.

وقال وهب بن منبه في قوله: جل ذكره: {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ..}[٣] نسختها الآية التي في غافر: {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا..}[٤] ، فآية غافر مخصصة لآية الشورى؛ لكن ابن منبه سمى التخصيص نسخًا.

وبهذا يتبين لنا أن كثرة ورود مصطلح النسخ لدى أسلافنا ليس دليلا على صحة ما ذهب إليه القائلين بالنسخ في كل ما تقدم، بل إن جميع دعاوى النسخ التي أوردناها هنا ليس لها أدنى نصيب من الصحة.

وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

[١] سورة الشعراء آية ٢٢٤: ٢٢٦.

[٢] سورة الشعراء آية ٢٢٧.

[٣] سورة الشورى، الآية: ٥.

[٤] سورة غافر، الآية: ٧.

فهرس المحتويات

المقدمة	
التمهيد	
المبحث الأول: الآيات التي ظاهرها تحديد مهمَّة النبيّ ﷺ.	
المطلب الأول: الآيات التي ظاهرها قصر مهمة النبيّ ﷺ على التبليغ وما في معناه.	
المطلب الثاني: الآيات التي ظاهرها ترك المشيئة الكاملة للمدعو في القبول وعدمه.	
المبحث الثاني: القول بنسخ آيات الصبر على أذى المخالفين	
الخاتمة: وقد ذكرت فيها أهم نتائج هذا البحث.	